

الآخريّة السياسيّة في ديوان عاشور فني "الربيع الذي جاء قبل الأوان" Political Otherness in Ashour Fanni's Diwan "The Spring That Came Prematurely"

أ.د/ بوخالفّة إبراهيم

المركز الجامعي مرسلّي عبد الله تيبازة - الجزائر

تاريخ النشر: 2025/07/01	تاريخ القبول: 2024/12/01	تاريخ الإرسال: 2024/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لم يعد النقد السياسي السّاخِر في الوطن العربي حكرا على السياسيين والروائيين وأصحاب المصالح الطّبقية، بل أضى للشعر دوراً فعّالاً ومؤثراً في توجيه الرأي العام وصناعة الأفكار الثوريّة، وخطاب الرفض لكلّ الوجبات السياسيّة التي تقدّمها الأنظمة العربيّة لشعوبها، من أجل الهيمنة على العقول والإرادات وتحييد كل سرديّات التّغيير والتنوير التي تضطلعُ بها الطّبقة المثقفة الحرة.

غير أنّ للشّعر بدائل ثوريّة على الصعيد الجمالي، للتغيير وتوجيه الرأي العام، والتحكّم في الحركة الاجتماعيّة للشّعب، باتّجاه امتلاكها لمصائرهما. فقد أضى الشّاعر الجزائري المعاصر، وعلى غرار تحولات ما بعد الحداثة يعتمدُ على الرمز والتجريد الموهلين في الشّعريّة، الكثيفين في إنتاج المعنى، انطلاقاً من بنية لغويّة غرائبيّة تسقط معها كل معايير الخطاب اللّغوي المعقلن.

في الشّعريّة المعاصرة، ما بعد الحداثيّة، يوظّف الشّاعر اللّغة بكلّ مكوناتها وتفصيلها، فالحرف ورسمه وبعده وعلاقته بما قبله وما بعده، والجمال، وأبعادها وإيقاعها، وبنيتها النحويّة والصّرفيّة وموسيقاها، والحركات والأصوات والألوان، كلّ ذلك تتشكّل منه البنية العميقة للنصّ الشعري من أجل صناعة الكون الشعري الذي يحتضنُ الحقل الدّلالي المتجدّد بتجدّد القراء والعصور والبيئات.

إنّ الشّاعر الجزائري المعاصر، وتجنباً للابتذال الفكري والبرودة العاطفيّة يتحرّى الرمز من خلال الصورة الدّهنيّة الدّالة كما يتحرّى التجريد، ويكتفي بشظايا المعاني وشذرات الأفكار، بينما يتحمّل القارئ بالمعنى الأيزري، عبء تجميع أجزاء الخطاب ورتقها من أجل الإفراج عن الدلالة

العميقة عمق وجود الشاعر في عالم متوحّشٍ وقبيح ولا إنساني. ومن أجل رصد هذه الشعريّة ما بعد الحداثيّة ندرس بعض المقاطع الشعريّة للشاعر الجزائري المعاصر عاشور فني، متعلّقة بالآخريّة السياسيّة وخطاب الرفض الذي يواجه خطاب السلطة القائمة، من خلال قصيدة "الشعراء". ص 57 من ديوان "الربيع الذي جاء قبل الأوان:

مقدمة:

لا يزال الشعر اليوم يكابد صراعا مريرا من أجل أن يسترجع فضاء ثقافيّا خسره في معركته مع الرواية. بل إنّ الرواية التي تهيمن على وعي القراء جماليّا وفكريّا، تنتهك حدود الشعر وتتبنى بعض أساليبه، ومعجمه وتخيله. ولا يستطيع الشعر المعاصر بدوره، أن يستحوذ على أساليب السرد حفاظا على طبيعته وعلى شعريّته. والواقع أنّ الأمر يتعلّق أساسا بطريقة التمثيل أي بالناحية الجماليّة. نعلم مثلا أنّ التمثيل الشعري للواقع وللعالَم هو تمثيل رمزي، موغل في الشعريّة والتّجريد، والقارئ في حاجة إلى قدرات نقدية هامة وإلى مخيلة شعريّة نافذة، لكي يتمكّن من تفكيك شفرات النصّ الشعري الذي يشبه إلى حدّ بعيد تشكيل الحلم من حيث الغموض والتخفي. وبسبب ذلك كان جمهور الشعر ضيقًا إلى أبعد الحدود، من حيث القدرة على التلقّي والقدرة على التأويل والتفاعل الجمالي والعاطفي والثقافي.

غير أنّ للشعراء منطقهم الذي يدركون من خلاله قضيّة الشعر، وتمثيل العالم، وبناء الخطابات الموجّهة للآخر. تلك الخطابات التي تسعى لتشكيل سرديّة تقاوم قبح العالم وانحطاطه، وتعالج أمراضه وتستأصل شروره، وتسكّن آلامه. إنّ قضيّة الشاعر هي نفسها قضيّة الروائي أو المناضل السياسي، ولكن أساليب التواصل مع المتلقّي تختلف باختلاف طريقة التمثيل. إنّ كلّ هؤلاء ينطلقون من رؤية للعالم ذات طبيعة فلسفيّة وأحيانا إيديولوجيّة، في كتابة الخطاب اللغوي، أو الشفهي. لكن الشاعر يميّز عن هؤلاء كلّهم في الذاتيّة. الشّاعر لا يتخيّل نفسه إلّا مركزا للعالم ومحورا للوجود. إنّّه يقف في الجوهر منه عند إنشائه لصوره الشعريّة واستدراجه لمفردات التعبير الشعري. إنّ الوجود البشري ينطلق من ذاته، ويعود إليها، فهو نقطة البدء وهو المنتهى. وانطلاقا من هذه الشعريّة يؤسّس جماليّاته وكونه المتخيّل ويضبط نبرته الشعريّة وإيقاعه الموسيقي، ويحدّد المسافة بينه وبين الواقع النثري.

إنّ الذي يميّز الشّاعر الأصيل هو الرفض المبدئي لما تقترحه السلطة من أشكال وجود اجتماعي لا تليق بآدميّة الإنسان، من أجل ذلك يميّز موقف هؤلاء الشعراء من المؤسسات بخطاب نقدي يذهب

بعيدا في نقده لتناقضات الواقع الاجتماعي. ولكثمتهم، وتجنبًا للابتذال، يتوَّخون التجريد والتخييل والرموز الشعرية الأكثر كثافة. كما أنَّهم يوظفون الصورة التمثيلية بشكل لافت، فهي وسيلتهم لصناعة الدلالة. وهي (أي الصورة الشعرية) التي ستجنهم السقوط في الدعاية الإيديولوجية والسياسية.

وفي هذه الورقة نسعى إلى دراسة أساليب تشكّل الآخرة السياسية لدى الشاعر عاشور فني، من خلال مسألة إحدى أهم قصائده الواردة في ديوان "الربيع الذي جاء قبل الأوان". وقد وقع اختيارنا لقصيدة "الشعراء" ص 54 من الديوان. وقد تمّ اختيارنا لها لانسجامها مع موضوعة الورقة وهي الآخرة.

في ظلال القصيدة:

عنوان القصيدة الشعراء، وهم أنبياء العصر الذين يقارعون الشرّ والقبح والرذيلة، ويناوئون المؤسسات الرسمية التي تطوّر علاقات هيمنة ناعمة على آخرها، وهم لا يملّون من ترديد النداءات وإطلاق صيحات الاستغاثة من أجل إنقاذ الوطن من أعداء الوطن. قد يصل الشاعر إلى عتبة اليأس عندما يصاب بالإعياء ويشعر بالعقم والعجز عن إنفاذ صوته وليّ ذراع خصمه.

نزع الشعراء مظلاتهم واستراحوا.

لم يبق من شعرهم غير هذا التعب

في ضلوع المسافر.

الوجود بالنسبة للشاعر رحلة مؤلمة، ومرهقة، وكذلك هي تجربته في مجتمعه، فهي تجربة مضنية، لا يكاد الشاعر يجد من ينصت لخطابه ولا من يتلقّى نبوءاته. إنّه يخاطبُ كائنات خرساء، لا تأبه بما يقول. وبسبب ذلك تتضاعف متاعب الشعراء، عندما يشعرون بالعزلة الفكرية والروحية. إنّ عالما غير تواصل يقاتل الفكر ويقتل كلّ عناصر الحياة. ليتحوّل البشر إلى كائنات فيزيائية تحركها الرغبات والحاجات البيولوجية.

في البيت الأوّل يشي نزع المظلات عن استراحة المقاتل من تعب الرحلة، وهي هنا رحلة وجودية، في مجتمع ضعيف الإيمان بقيم الإنسان التي يؤمن بها الشعراء. إنهم لم ينالوا من شعرهم إلاّ التعب، والتعب هنا معنويّ، فهو الإحباط والشعور بالإخفاق في التواصل مع الآخرين وإقناعهم بسردية

المقاومة، ووجدوى الإيمان بالمثل كالحب والخير والجمال والإنسانية. إنّ الشعور بالتعب المعنوي يجعل الذات تنهار وتيأس من جدوى متابعة تجربة التنوير والتغيير. لذلك يجسّد الشاعر هذا التعب بقوله أنّه شمل ضلوع المسافر، أي كلّ أطرافه وجوارحه.

يتابع الشاعرُ نعي الشاعرِ قائلاً:

لم يبق من وحيهم غير هذا السّغب

في الشّوارع

لم يبق من حلمهم غير هذا الخشب

يابسا.

يتكسّرُ في قبضةٍ من لهب.

الشعراء أنبياء العصر، أصحاب رسالة تهدفُ إلى إحياء قيم الخير والجمال، والحب والتسامح. هذا ما تشي به لفظة "وحيهم". فالوحي هو المعاني التي يتلقاها الأنبياء عن الله تعالى، وهو (أي الوحي) الأفكار والخواطر التي يتلقاها الشاعر عن مخياله الرمزي، ووعيه بالوجود وشعريته. والعلاقة بين الوحيين هو أن كليهما ملزّمٌ بالتبليغ، أنبياء الله يبلغون الرسالة، والشعراء يبلغون قضيتهم النابعة من وجودهم الجماعي. وكما يرفضُ الأنبياء في بداية الدعوة، ويكذبون ويقتلون، فإنّ الشعراء قد يتعرضون لنفس المصير، غير أنّ الأمل في اختراق قوى الشر ممكن والأمل في ذلك لا ينقطع.

يلفت الشاعر انتباهنا أنّه لم يبق من شعر الشعراء إلا السّغب، وهي المتاعب والجوع. وكأنّ الشاعر لم يجن من قصائده إلا السغب في الشوارع. وقد وردت مفردة الشوارع معزولة في بيت شعري. لأنّها بمفردها، وبمعزل عن السياق الشعري، تكون حمالة لحزمة من المعاني والتأويلات غير المحدودة. عندما تكون المفردة مكتفية بذاتها، فذلك يعني أنّها ذات خصوصية عالية، تغنيها عن مزيدٍ من الكلمات. فالشوارع ترمز إلى الفضاء المفتوح، وهذا الأخير يرمز إلى التيه والتسكّع وغياب الأفق. مفردة "يابسة" هي الأخرى وردت في سطر شعري بمفردها، لحمولتها الدلالية الغنيّة، الأمر الذي يغنيها عن مزيد من الكلمات. إنها تدلّ بذاتها ودون مسند. ومن معانيها التخشب والصلابة، والخشونة، وغياب المرونة والليونة، أي غياب الحياة. فالخشب هو شجرٌ ميّتٌ، لا حياة فيه ولا ثمار ولا ظلّ ولا زهور.

إن الشوارع، والسغب والخشب، كلّها تنتهي إلى حقل دلالي متناغم. وهي معاني كلّها سلبية، تفتقر إلى الحياة والحيوية والأمل. فأحلام الشعراء تحوّلت إلى مادّة خشبيّة يابسة، لا حياة فيها. والحلم حينئذٍ هو وهم وتيه وتسكّع في الشوارع دون هداية ولا بوصلة. معنى ذلك أنّ كلمات الشعراء تصلّ إلى أذان المتلقّي كأصوات صاحبة دون دلالة، إنّها أصوات نابية غير دالّة، بل هي مؤذية، وقابلة لأن تتحوّل إلى مادّة مشتعلة، وحارقة. فكما لا يصلّ القرآن الكريم إلى أذان الذين لا يؤمنون به إلّا في شكل أصوات صاحبة ولاغية مستغلقة المعاني، فكذلك لا يصلّ الشعر إلى من لا يتذوقه ولا يؤمن برسائله إلّا بصفته لغوا وضجيجا غير دالّ. إنّ الحالة النفسية للشاعر دفعت به إلى انتقاء سلّة مفردات ذات معانٍ سلبية، تدلّ على الموت والصمت والتعب والإحباط. ويتميّز هذا المقطع الشعري باقتصاد لغوي في مقابل خصوبة دلالية تحقق فائض المعرفة، وتنتج جماليّة عالية الاشتغال.

إنّ جملا شعريّة متكوّنة من المفردة الواحدة، بإمكانها أن تغرق المتلقّي بفيض من المعاني لا حدود له. فتدسّق المفردات وتوزيعها بكيفية معينة على البياض، ومراعاة اقتصاد اللّغة، كلّ ذلك يندرج ضمن جماليّات القصيدة المعاصرة لدى شعراء معاصرين، وعاشور فني أحد هؤلاء الذين يكتبون ضمن شعريّة ما بعد الحداثة التي تشبّت البيت الشعري إلى وحدات صوتيّة دنيا لإنتاج شذرات المعاني وشتات من الأفكار التي تدين قبح العالم وانحطاط الإنسان. ويتعيّن على القارئ بالمفهوم الآيزري للممة المعاني المبعثرة والأفكار المجزّأة ضمن حقل دلالي متكامل، وهو في قصيدة "الشّعراء" حقل صناعة الآخر، مصدر الشرّ.

رسالة الشعراء:

مادت الأرض من هول ما حملت.

وتكاد الكواكبُ أن تختفي

وتكاد القصائد أن تلتهب.

وأنا...

قابضُ جمرة الشعر

أخفي لهيبه عن الناس كي يعبروا...

وتمرّ الحقب. (الديوان/ ص 58).

إنّ عبء الرسالة الملقاة على عاتق الشاعر تنوء بحملها الجبال. فالأرض مالت من ثقلها، والكواكب اختفت، والدّنيا أظلمت بفعل غياب الجمال الذي يحدثه غياب الشعر في وجودنا؛ والقصائد التهبّت من فرط ما واجهه الشاعر من صدّ ورفض ومكابرة، من قبل قوى الشر والطغيان. إنّها تلتهبّ غضبا من الممانعة، وتلتهبّ حماسة وحرارة عندما تنشّد على الشفاه، وتتردّد على الحناجر. ترسلُ القصائد بركانا من الغضب عندما يتنكّر المجتمع للشاعر ويرفضه بوصفه نقيبا في الناس ومنافحا عنهم، ودليلهم في الدّروب الوعرة.

تتضخّم أنا الشّاعر وتترّيع على عرش اللّغة لتكون العالم كلّهُ. من أجل ذلك تفرّدت أنا وحيدة في جملة شعرية منعزلة عن سائر مفردات القصيدة، تعبيرا منها عن قدرتها عن ملأ الفراغ الرهيب الذي يشكّله غياب الشعراء.

هذه الأنا تتألّم لأنّها وهي تقبض على نبوءتها ورسالتها، وكأنّها تقبض على جمرة. فليس أصعب من أن يقدّم المثقف لبلده ولقومه طريقا للخلاص والسعادة ويواجه شرّ مواجهة، ويُنعّت بأسوأ النعوت، وقد يُتهم في مداركه العقلية؛ ويضطرّه ذلك أن ينكفئ على نفسه، إلى حين، يخفي أوجاعه وخيباته عن الآخرين كي يجتازوا الحياة بصمت. فتمرّ الحقب والمدد دون أن يغيّر ذلك من الأمر شيئا. يبقى الشاعر كالنبي الذي رفضه قومه واتّهموه بشقّ الألقاب المسيئة، ويركن إلى الصمت لوقت معين، ثم لا يلبث أن يستأنف رسالته حاملا بذلك هموم الوطن والأمة، مضحيا بسلامته وبأمنه.

مجل القول:

هل يمكن اعتبار الشّاعر خصما لمجتمعه؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من التذكير بأنّ الشّاعر هو مثقف قبل أن يكون شيئا آخر؛ وفي مجتمعات الاستبداد السياسي، يعتبر المثقفون الخصم التقليدي للمؤسسات التي تمارس علاقات القوة والهيمنة على المسحوقين والأقلّوين. ومن هنا يأتي العمل على إنشاء وتطوير سردية مقاومة من خلال الشعر أو الرواية أو المسرح أو أيّ فنّ من الفنون.

والذي بين أيدينا الآن هو مشروع مقاومة شعرية لقوى الظلام والطغيان في المجتمع. غير أنّ الشاعر عاشور فني وكما هو شأن شعراء ما بعد الحداثة، يتوخّى أساليب جمالية ضمن رؤية شعرية جديدة للتأسيس لسردية مقاومة. من معالم هذه الرؤية الفنيّة التجريد والتخييل المفرط، وسياسة

لغويّة تعتمد على الاقتصاد الشعري. فتجزئ البيت الشعري إلى حدوده الدنيا ليستقل البيت بكلمة واحدة محمّلة بالمعنى، وتكرار هذا النمط من الشعريّة بصفة دوريّة والتعويل على الصّورة الشعريّة كحامل للدلالة الرمزيّة، كل ذلك هو طريقة من بين طرق أخرى لرسم تقاليد جماليّة توثق الصراع بين المثقف والسلطة.

من المفردات المفاتيح في شعريّة عاشور فني، كوكب، جمرة، وحي/ في مقابل/ الأرض، الخشب، لهيب، الشوارع. وهكذا يمكن رصد ثنائيات ضديّة هي الرمز الموضوعي لمبدأ الصراع بين الخير والشر.